ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Dr. Maryam Sadiq Abbas

College of Education for Human Sciences

Email: mabaas@uowasit.edu.iq

Keywords:

Syntactic guidance, inclusion, syntactic deviation

CC BY

A r t i c l e i n f o

Article history:

Received 21. Jun.2026

Accepted 1. Sep.2026

Published 10. Nov.2026

The impact of meaning on guiding grammatical structure in Hasani texts

A B S T R A C T

This study analyzes the grammatical and semantic mechanisms within the Hasanid corpus, revealing that Imam al-Hasan (peace be upon him) did not merely utilize grammar as procedural rules; rather, he adapted it to serve as a pragmatic marker that facilitates specific doctrinal and educational objectives. The research findings demonstrate that strategies of "syntactic deviation" (al-ʻudul al-tarkibi)—such as fronting the object, ellipsis, and hyperbaton (inversion)—were not mere stylistic embellishments. Instead, they served as persuasive necessities aimed at deepening connotations and anchoring meaning within the recipient's consciousness.

Furthermore, the research concludes that the phenomenon of "enallage/implication" (al-tadmin) in the Hasanid verbs played a pivotal role in expanding the semantic horizon of base verbs, thereby shifting them from their purely lexical definitions to broader meanings dictated by the contexts and circumstances of discourse. The study also establishes that the construction of grammatical norms in this discourse relied on "situational and semantic markers" as an essential, indispensable criterion for understanding the speaker's intent and preventing ambiguity. Ultimately, the study concludes that the discourse of Imam al-Hasan (peace be upon him) represents a unique model of integration between syntactic structure and semantic purpose. Grammatical rules here are no longer merely formal, descriptive standards; they have evolved into strategic, functional tools for regulating linguistic communication, thereby enabling them to contribute to the formation of a profound intellectual structure that transcends the surface of language to reach its functional essence.

© 2026 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol65.Iss1.5376

أثر المعنى في توجيه البنية النحويّة في المدونات الحسنيّة

م.د. مريم صادق عبّاس
جامعة واسط ـ كليّة التّربية للعلوم الإنسانيّة

الملخّص:

تناولت الدراسة تحليل الآليات النحوية، والدلالية في المدونات الحسنيّة، كاشفةً عن أنّ الإمام الحسن (عليه السلام) لم يكتفِ باستثمار النحو كقواعد إجرائية، بل طوّعه ليكون قرينةً تداوليةً تخدم أغراضاً عقدية وتربوية محددة. أظهرت نتائج البحث أن استراتيجيات (العدول التركيبي) كتقديم المفعول به، والحذف، والتقديم والتأخير، لم تكن ترفاً أسلوبياً، بل كانت ضرورةً إقناعيةً لتعميق الدلالة وتركيز المعنى في نفس المتلقي، كما توصل البحث إلى أن (ظاهرة التضمين) في الأفعال الحسنيّة لعبت دوراً جوهرياً في توسيع الأفق الدلالي للأفعال الأصلية؛ مما سمح بنقلها من دلالاتها المعجمية إلى دلالاتٍ أرحب تفرضها سياقات الخطاب ومقاماته، وأثبتت الدراسة أن بناء القاعدة النحوية في هذا الخطاب استند إلى (القرينة المقامية والمعنوية) كمرجعٍ أساسي لا غنى عنه لفهم مراد المتكلم ومنع اللبس، وتخلص الدراسة إلى أن خطاب الإمام الحسن (عليه السلام) يمثل أنموذجاً فريداً في التكامل بين البناء النحوي والمقصد الدلالي؛ ولم تعد القاعدة النحوية مجرد معيارٍ وصفيٍ شكلي، بل استحالت أداةً وظيفيةً استراتيجية في انتظام التواصل اللغوي؛ مما مكّنها من المساهمة في تشكيل بنية فكرية عميقة تتجاوز ظاهر اللغة إلى جوهرها الوظيفي.

الكلمات المفتاحية: التوجيه النحوي، التضمين، العدول التركيبي

المقدِّمة:

يُمثّل ربط المعنى بالتوجيه النحوي المرتكز الأساس في فهم أسرار الخطاب العربي؛ إذ لا تقتصر وظيفة النحو على ضبط الأبنية وتصحيح المسارات الإعرابية؛ بل تتجاوز ذلك لتكون وسيلةً وظيفيةً للكشف عن المقاصد الدلالية وتعيين مراد المتكلم في ضوء السياق والمقام، فالمعنى هو الموجه الحقيقي الذي يُضفي على القاعدة النحوية فاعليتها الإقناعية، ويحولها من مجرد قوانين إجرائية جامدة إلى أداةٍ حيويةٍ تضبط التواصل وتُبرز أبعاد النص التداولية والجمالية، وتمثلت أهداف البحث في تحليل آليات التوجيه النحوي في (المدونات الحسنيّة) ويُقصد بها مجموعُ النصوص الخطابية، والمواعظ، والرسائل، والمناجاة المنسوبة للإمام الحسن (عليه السلام)، والموثقة في أمهات المصادر التراثية، وقد اخترتُ هذه النصوص مادةً إجرائيةً للبحث؛ لكونها تشكل مدونةً لغويةً غنيةً بالظواهر النحوية الموظفة في سياقات دلالية متنوعة (تربوية، عقدية، وحجاجية). ولا يقتصر قصدي هنا على جمع هذه النصوص، بل استنطاقها لغوياً لاستخراج آليات (التوجيه النحوي) التي اعتمدها الإمام (عليه السلام) في إيصال مقاصده، مع الالتزام بالمنهج الوصفي التحليلي في تفكيك هذه النصوص وتفسيرها في ضوء العلاقة الوثيقة بين البنية النحوية والوظيفة الدلالية، وبيان دور القرينة والمعنى في ترجيح الأوجه التركيبية، وتفكيك بنية الحذف والتقديم والعدول في خطاب الإمام الحسن (عليه السلام)، وتجدر الإشارة إلى أن الدراسات السابقة قد ركزت على التوجيه في القراءات القرآنية أو في مؤلفات النحويّين، بينما يختص هذا البحث بتطبيق هذه المبادئ على خطاب علوي رفيع؛ مما يشكل إطاره النظري القائم على الوصل بين (نظرية العامل) عند القدامى و(الاتجاه الوظيفي) في المناهج اللسانية الحديثة التي تربط اللفظ بالوظيفة، أما مشكلة البحث فتكمن في تساؤل جوهري: كيف وظّف الإمام الحسن (عليه السلام)

البنى النحوية بوصفها قرائن دلالية تخدم المقاصد العقدية والتربوية؟ وللإجابة على ذلك، اتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي عبر استقراء الشواهد وتفكيكها إعرابياً ودلالياً.

التمهيد: مفهوم التوجيه النحوي وعلاقته بالمعنى

أوّلًا: مفهوم التوجيه النحوي عند النحويّين:

يُعَدُّ التوجيه من العلوم المهمة المرتبطة بالمستويات اللّغويّة كافة، وقد حظي هذا العلم بعناية العلماء؛ لما له من أثرٍ في توضيح المعاني القرآنية وإبراز سعة اللغة العربية ودقتها.

التوجيه في اللغة:

جاء في لسان العرب: "ووَجْهُ كُلِّ شَيْءٍ :مُسْتَقْبَلُه"(منظور, د.ت. ج١٣، ص. ٥٥٥)، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ :"فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ" [البقرة: ١١٥]، والتوجيه هو مصدر الفعل (وجَّه) يوجه توجيها، ويقال: وجّه الشيء؛ أي: جعله متجهًا إلى جهة واحدة(مجموعة مؤلفين,د.ت، ص.١٠١٥)، ومنه قوله تعالى: "فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ" [النحل: ٧٦]، وقال الراغب الأصفهاني: "وفلان وجه القوم، كقولهم: عينهم ورأسهم ونحو ذلك"(الأصفهاني، الراغب, د.ت، ج ١، ص. ٨٥٦).

التوجيه في الاصطلاح:

علم يُعنى بدراسة القراءات من جوانبها الصوتية، والصرفية، والنحوية، والبلاغية، والدلالية(إبراهيم بن محمد جمعة, ٢٠٠٤، ص. ٣٣٦)، وذهب الدكتور عبدالعزيز الحربي إلى أن التوجيه: " علم يبحث فيه عن معاني القراءات والكشف عن وجوهها في العربية، أو الذهاب بالقراءة إلى الجهة التي يتبين فيها وجهها ومعناها"(الحربي، عبد العزيز, ١٤١٧، ص. ٦٥)، كما عرّف تمام حسان التوجيه النحوي بأنه تعيين الوجه المناسب للحكم النحوي على وفق ما ينسجم مع السياق والمعنى (حسان، تمام, ٢٠٠٠، ص. ١٨٩).

التوجيه عند النحويّين:

حظي مفهوم (التوجيه النحوي) بحضورٍ فاعل في التراث اللغوي العربي، متجاوزاً بذلك حدود التأليف النحوي الصرف ليُشكل أداةً إجرائيةً جوهرية في مؤلفات التفسير، والبلاغة، ودراسات القراءات؛ إذ وظّفه العلماء بوصفه وسيلةً منهجيةً للكشف عن أسرار التراكيب واستجلاء وجوه الإعراب في ضوء سياقاتها الدلالية، وقد تجلّى هذا الحضور عبر تنوعٍ في المصطلحات والعبارات الإجرائية الدالة عليه؛ إذ تارةً يُصرح بلفظ (التوجيه)، وتارةً يُعبر عنه بعباراتٍ وظيفيةٍ مثل: (وجه الكلام) أو (يجري على كذا)؛ مما يعكس وعي النحاة العرب بالوظيفة التفسيرية للتوجيه، بوصفه أداةً لضبط البنية اللغوية وتفسير أدائها الدلالي، ويُعدّ سيبويه من أوائل من تناولوا التوجيه النحوي بصورة واضحة؛ إذ كان يربط الحكم النحوي بالعلة والمعنى معاً، فقال: "هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول... وذلك قولك: هذا الضاربُ زيداً، فزيداً منصوبٌ بالضاربِ، كما كان يُنصبُ بـ (يضربُ) إذا قلتَ: هذا الذي يضربُ زيداً. وإنما فُعل ذلك لأنه قام مقامَ (يضربُ) والاسمُ إذا كان فيه الألفُ واللامُ فهو بمنزلةِ الفعلِ الذي لا يستترُ فيه من ذكرتَه، فكأنه قال: الذي يضربُ زيداً، فكما أنَّ (يضربُ) لا يكونُ إلا وفيهِ ذكرُ فاعلٍ، كذلك (الضاربُ) لا يكونُ إلا وفيهِ ذكرُ فاعلٍ"(سيبويه, ١٩٨٨، ج١، ص. ٣٧)، كما تناول الأخفش قضايا التوجيه عند تفسيره لبعض الأساليب القرآنية، فبيّن الأوجه الإعرابية الممكنة ووازن بينها بحسب المعنى، ففي قوله تعالى: "وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ "[الأنعام:٢٧] أجاز نصب الفعل على جواب التمني، كما أجاز رفعه على معنى الاستئناف، غير أنه رجّح الرفع؛ لأن الآية في نظره تدل على تمني الرجوع، أما الإيمان وعدم التكذيب فهما نتيجة مترتبة على ذلك الرجوع، لا أمران مقصودان بالتمني ابتداءً(الأخفش الأوسط, ١٩٨٥، ج١، ص. ٢٣٧)، أما الفراء فكان من أكثر النحويين استعمالاً لعبارة وجه الكلام؛ إذ يوردها عند بيان ما يراه أرجح الأوجه النحوية أو أقواها في

الاستعمال، ومن ذلك حديثه عن الفعل الواقع بعد جواب الشرط المقترن بالفاء؛ إذ بيّن إمكان تعدد الأوجه الإعرابية فيه، مع ترجيحه بعض تلك الأوجه تبعاً لما ينسجم مع نظام العربية وسياق الكلام(الفراء, ١٩٨٠، ج١، ص.٧٩)؛ ومن هنا يتبين أن التوجيه النحوي عند القدماء لم يكن مجرد بيان لحركة إعرابية، بل كان منهجاً قائماً على التعليل وربط الإعراب بالمعنى والسياق؛ لذلك اعتمدوا وسائل متعددة في التوجيه، كالحذف والتقدير، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى، وتقدير العامل، بما ينسجم مع طبيعة التركيب العربي ودلالته.

يتضح مما سبق أن التوجيه النحوي يرتبط ببيان أوجه القراءات وتفسيرها في ضوء القواعد اللغوية والدلالية، الأمر الذي يسهم في فهم البنية اللغوية للنص وتحليل دلالاته.

مفهوم المعنى وأثره في التوجيه النحوي:

يُعدُّ المعنى الركيزة الأساسية التي تقوم عليها الأحكام النحوية؛ إذ لم يكن النحو العربي في نشأته علمًا يعنى بضبط أواخر الكلمات فحسب، وإنما كان وسيلةً للكشف عن المقاصد التي تؤديها التراكيب في سياقاتها المختلفة؛ ولذلك ارتبط التوجيه النحوي عند علماء العربية بالبحث عن الوجه الإعرابي الذي يحقق المعنى المقصود، فلا يُرجَّح وجهٌ من الوجوه النحوية إلا إذا كان أوفق بالسياق وأقرب إلى مراد المتكلم. ومن هنا أصبح المعنى معيارًا من أهم معايير الترجيح بين الأوجه الإعرابية، حتى قيل: الإعراب فرع المعنى؛ لأن صحة الإعراب لا تنفصل عن صحة الدلالة، والمقصود بالمعنى في هذا البحث ليس المعنى المعجمي للألفاظ فحسب، وإنما المعنى السياقي الذي يتولد من انتظام الكلمات داخل التركيب، وما يحيط بها من قرائن لفظية وحالية ومقامية، وهو الذي يوجه اختيار البنية النحوية ويحدد وجهها الصحيح؛ ولهذا كان النحاة يردون كثيرًا من الخلافات الإعرابية إلى اختلاف المعاني، فيجيزون أكثر من وجه إذا احتملها السياق، ويرجحون أحدها متى دلَّ المعنى على اختصاصه، وقد أدرك النحاة الأوائل هذه الحقيقة؛ فربط سيبويه الأحكام النحوية بالعلة والمعنى، بينما أكّد ابن جني أن اختلاف التراكيب تابع لاختلاف المقاصد، وجعل عبد القاهر الجرجاني النظم قائمًا على تعليق الألفاظ بالمعاني، وفي الدراسات اللغوية الحديثة ازداد الاهتمام بهذه العلاقة، فأصبح المعنى أساسًا في تفسير الظواهر النحوية، وعدَّت البنية النحوية أداةً لتحقيق الوظيفة الدلالية والتواصلية للنص، وانطلاقًا من ذلك، يقوم هذا البحث على أن التوجيه النحوي في المدونات الحسنية لا يمكن فهمه بمعزل عن المعنى؛ إذ إن ظواهر التقديم والتأخير، والحذف، والتضمين، والعدول التركيبي، لا تمثل مجرد اختيارات نحوية، وإنما هي وسائل وظفها الإمام الحسن (عليه السلام)؛ لتأكيد دلالات معينة، وإبراز مقاصد عقدية وتربوية وتداولية، الأمر الذي يجعل المعنى المحور الرئيس في تفسير هذه البنى وترجيح وجوهها، فيقول ابن جني مبيناً مبدأ العلاقة بين اللفظ والمعنى: "اعلم أن أعظم أسباب اختلاف العربية في تصاريف ألفاظها، وتبدع أحوال إعرابها، اختلافُ المعاني التي تُصاغ لها الألفاظ، فأما ما ذهب إليه سيبويه من أنهم يُسمون الأشياء بأصواتها، فذلك لشدة مناسبة الصوت للمعنى"(ابن جني, ١٩٥٢، ج١، ص. ٣٤)، وقال الجرجاني: "ليست صناعة النحو كما ظن كثير ممن يصغون إلى الحقائق صوغاً للألفاظ فقط كما تُصاغ الألفاظ، ولكنها تصوير للمعاني وتقدير لها.. وإنما غرض أهل العربية أن يحيطوا بعلم المعاني"(الجرجانيّ، عبد القاهر, ١٩٩٢، ص. ٧٥)، ويرى تمام حسان أن الصلة بين اللفظ والمعنى تقوم على التلازم الوظيفي؛ إذ إن المعنى هو الذي يوجّه تشكيل البنية اللغوية، بينما تمثل البنية وسيلة لإظهار ذلك المعنى وكشفه، ومن ثمّ يتجلى تأثير الدلالة واضحًا في صياغة القاعدة النحوية، بحيث لا تكاد توجد قاعدة نحوية إلا ولها مقصد دلالي محدد تؤديه(حسان، تمام, د.ت، ص. ١١٤)، وذهب مصطفى غالب أن التقديم والتأخير (وهما قاعدة نحوية) يفيدان المعنى بقوله: "إن التقديم والتأخير في العربية ليسا لمجرد التزين في الكلام، بل هما من أعمدة المعنى، فتقديم ما حقه التأخير يفيد الاختصاص أو الحصر أو التشويق، وهذه كلها غايات معنوية ساقتها اللغة إلى قواعد نحويّة معينة"(غالب، مصطفى, د.ت، ص.٢٦٣)، ويرى د. صادق العلاق أن النحاة العرب لم يتعاملوا مع اللغة بوصفها بنية

شكلية مجردة، وإنما كان المعنى هو الأساس الذي انطلقت منه أحكامهم النحوية ووجّه اجتهاداتهم، فقد بنوا قواعدهم على ما ورد عن العرب في كلامهم؛ إذ كان التعبير اللغوي مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالمعاني التي يقصدونها(العلاق، صادق, د.ت، ص. ٨)، وهذه الرؤى النقدية التي قدمها هؤلاء الأعلام تشكل المنطلق المنهجي الذي سنستند إليه في تحليلنا للمدونات الحسنيّة؛ إذ سنكشف من خلالها كيف استثمر الإمام الحسن (عليه السلام) هذه القواعد النحوية، كتقديم المعمول أو حذف المتعلق؛ ليكون موجهاً دلالياً يخدم أغراضه التربوية والعقدية؛ مما يؤكد أن البنية النحوية في خطابه لم تكن إلا صدىً لمقاصده المعنوية السامية.

دور القرينة والمعنى في الترجيح:

يُعدُّ المعنى والقرينة من أهم الأدوات الأصولية المعتمدة في الترجيح بين الأدلة والنصوص؛ إذ لا يتوقف فهم النص عند ظاهره اللغوي، بل يتجاوزه إلى ما تحيط به من قرائن كاشفة عن مراد المتكلم، وقد أولى علماء الأصول عناية فائقة لأثر القرينة في توجيه الدلالة، فعدّوا موافقة النص للمعنى الصحيح والعلة المناسبة معياراً قوياً للترجيح، كما أكّدوا أن القرينة هي المحدد الحقيقي لإرادة الشارع؛ وهو ما أشار إليه الغزالي في (المستصفى) بقوله: "وَمِمَّا يُتَرَجَّحُ بِهِ أَحَدُ الْخَبَرَيْنِ: أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا مُوَافِقًا لِلْقِيَاسِ وَالْمَعْنَى، وَالْآخَرُ مُخَالِفًا لَهُ؛ فَإِنَّ مَا وَافَقَ الْمَعْنَى أَوْلَى. (قال) وَأَمَّا تَرْجِيحُ الْأَخْبَارِ بِالْقَرَائِنِ الْمُفَصِّلَةِ لِلْمُجْمَلِ، وَالْمُخَصِّصَةِ لِلْعَامِّ، فَذَلِكَ مِمَّا لَا خِلَافَ فِي أَنَّ الْقَرِينَةَ تَقْتَضِي تَرْجِيحَ الْجَانِبِ الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ؛ إِذْ كَانَتْ دَلِيلًا عَلَى قَصْدِ الشَّارِعِ"(الغزالي, ١٩٩٧، ج٢، ص٣٨٤)، فيوضح الغزالي أن (المعنى) (وهو العلة أو الحكمة المستنبطة) أداة ترجيح؛ فالنص الموافق للمعنى المستقيم يقدم على غيره، كما يؤكد أن (القرينة) هي المحدد الحقيقي لإرادة الشارع، فوجود قرينة التخصيص أو التفسير يرجح النص المحاط بها؛ لأنها كشفت عن المقصود الشرعي بدقة، وربط الآمدي بين (ظهور المعنى) و(وجود القرينة) القرينة هنا ليست مجرد لفظ، بل هي معنى يقتضيه السياق، وصرف اللفظ إلى المجاز أو التخصيص يجعل هذا اللفظ راجحًا؛ لأنه تحددت دلالته بدقة، مقارنة بلفظ آخر ظل دلالته محتملة أو عامة، بقوله: "مِنْ وُجُوهِ التَّرْجِيحِ: أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الْخَبَرَيْنِ أَظْهَرَ دَلَالَةً فِي الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ مِنَ الْآخَرِ... وَذَلِكَ بِأَنْ تَكُونَ فِيهِ قَرِينَةٌ تُنَبِّهُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ خِلَافُ ظَاهِرِهِ أَوْ تُوَضِّحُهُ وَتُزِيلُ إِشْكَالَهُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ الْخَبَرُ أَرْجَحَ لِقُوَّةِ دَلَالَةِ الْقَرِينَةِ عَلَى الْمُرَادِ... فَإِنَّ الْقَرَائِنَ مَعَانٍ تَقْتَضِيهَا أَلْفَاظُ الْكَلَامِ تَقْتَضِي صَرْفَ اللَّفْظِ عَنْ جِهَةِ الْحَقِيقَةِ إِلَى الْمَجَازِ أَوْ عَنِ الْعُمُومِ إِلَى الْخُصُوصِ"(الآمدي, د.ت، ج٤، ص. ٢٠٠-٢٠١)، وذهب الشوكانيّ إلى أن وجود (القرينة) التي تصرف اللفظ عن ظاهره يجعل الحديث أرجح، لا أضعف، والسبب في ذلك أن القرينة (عينت محمل) النص (أي حددت المراد قطعًا)، بينما النص الآخر بقي احتماله قائمًا، والقطع بالدلالة (الناتج عن القرينة) أقوى من الظاهر المحتمل(الشوكاني, ١٩٩٩، ص ٢٦٢)، ويوضح عبد الوهاب خلاف أنّ اللّفظ لا يفهم إلا بالقرينة، وأن القرينة هي التي تحدد المعنى المراد وبالتالي هي أداة الترجيح: "إِنَّ الْمَعَانِي الَّتِي تُفِيدُهَا الْأَلْفَاظُ لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِالْقَرَائِنِ الْمُتَرْكَزَةِ فِي الْذِّهْنِ، وَالْقَرَائِنِ الْمُتَصَرِّفَةِ فِي اللَّفْظِ؛ فَالْقَرِينَةُ هِيَ الْمُحَدِّدَةُ لِلْمَعْنَى الْمُرَادِ مِنَ اللَّفْظِ... وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ التَّرْجِيحَ بَيْنَ الْأَدِلَّةِ يَعُودُ إِلَى قُوَّةِ الْقَرِينَةِ وَوُضُوحِهَا فِي دَلَالَتِهَا عَلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ؛ فَالدَّلِيلُ الَّذِي تَدُلُّ قَرَائِنُهُ عَلَى الْمَعْنَى بِشِدَّةٍ وَلَا احْتِمَالَ فِيهِ، يَكُونُ أَرْجَحَ مِنْ غَيْرِهِ الَّذِي تَكُونُ قَرَائِنُهُ ضَعِيفَةً أَوْ مُحْتَمَلَةً"(خلاف، عبد الوهاب, ١٤١٦، ص.٧٥)، فلا ينفصل المنهج الأصولي في التعامل مع القرينة عن المنهج النحوي في التوجيه؛ فكما استند الأصوليون إلى القرينة كأداة لترجيح المعنى المقصود وإزالة الإشكال، اعتمد النحاة العرب المبدأ ذاته في ترجيح الأوجه الإعرابية؛ إذ تُعدُّ قوة القرينة ووضوح دلالتها المعيار الأبرز في تفضيل وجه نحوي على آخر، وبناءً على ذلك، يكتسب توظيف (القرينة) في المدونات الحسنيّة أهميةً خاصة؛ إذ تصبح الأداة التي تكشف عن المقاصد التربوية والعقدية التي وجّه الإمام الحسن (عليه السلام) من أجلها البنية النحوية، وهو ما يؤكد تكامل المنهجين الأصولي والنحوي في استنباط المعنى وتوجيهه

المناهج الحديثة التي تربط النحو بالدلالة:

شهدت الدراسات اللغوية الحديثة تحولاً جذرياً في نظرتها إلى العلاقة بين النحو والدلالة؛ إذ انتقلت من التركيز على الأشكال الإعرابية المجردة إلى الاهتمام بـ (الوظيفة) التي يؤديها التركيب في إيصال المعنى، فلم تعدّ اللغة في هذه المناهج مجرد أصوات منفصلة أو قواعد صماء، بل أصبحت بنية مزدوجة تتفاعل فيها العلاقة بين اللفظ والمدلول، فقد أوضح تمام حسان أن اللغة (ومن ثم قواعدها) تتكون من صوت ومعنى معاً: "ليست اللغة أصواتاً فقط كما يظن كثير، ولا هي معانٍ فقط كما يظن آخرون، وإنما هي أصوات استعملها الناس أدلة على معانيهم... فاللغة بنية مزدوجة، لا يمكن دراسة صوت إلا لمعناه، ولا يمكن دراسة معنى إلا من صوته، وعلى هذا الأساس يبنى الإعراب؛ فهو خدمة للمعنى وتثبيت له"(حسان، تمام, د.ت، ص. ٣٣-٣٤)، وفرق أحمد مختار عمر بين معنى الكلمة ومعنى التركيب (القاعدة)، بقوله: "من حقول علم الدلالة الحديثة: الدلالة النحوية، وهي المعاني التي تُضاف إلى معاني المفردات بفضل وظائفها في التركيب... فالمعجم يعطينا معنى المفردة، أما النحو فيعطينا معنى العلاقة بين المفردات... فقاعدة (الفاعل) مثلاً ليست مجرد رفع، بل تعني (من قام بالفعل أو اتصل به)"(عمر، أحمد مختار, د.ت، ص. ١٨٠)، وذهب د. عدنان القيس إلى أن الدراسات اللسانية الحديثة في اللغة العربية ، قد أظهرت بأن تغيّر الترتيب النحوي يؤدي إلى تغيّر في بنية الإخبار أو تنظيم المعلومات؛ فتقديم المفعول على الفاعل في التركيب لا يبدّل المعنى المعجمي للجملة؛ لكنه يؤثر في الجانب الدلالي من حيث التركيز والاهتمام؛ إذ يكتسب العنصر المتقدّم مكانةً دلاليةً أبرز وحضورًا أقوى في ذهن المتلقي(القيس، عدنان, د.ت، ص. ٧٢)، وبيّن د.محمّد محمّد يونس أن المناهج الحديثة لا تهتم بالخطأ والصواب شكلاً، بل بسلامة المعنى، فقال: "الاتجاه الوظيفي في دراسة النحو العربي يقوم على أن التركيب اللغوي أداة لنقل المعنى، وأن المتكلم العربي كان يختار التركيب النحوي المناسب للمعنى الذي يريد إيصاله؛ لذا لا يصح الحكم على تركيب نحوي بأنه (غير سائغ) إلا إذا أدى إلى خلل في الدلالة أو الغموض"(يونس علي،, د.ت، ص.٤٢)، وبهذا نرى إن المناهج الحديثة في دراسة اللغة العربية قد وضعت (المعنى) في قلب العمليتين النحوية والتركيبية، لقد بيّن العلماء المحدثون أن العلاقة بين النحو والدلالة علاقة تكاملية؛ فالقاعدة النحوية -كما أشار لذلك أحمد مختار عمر ليست مجرد حركة إعرابية، بل هي تعبير عن علاقة رابطة، وترتيب الكلمات -كما أوضح د. عدنان القيس- ليس شكلياً بل هو أداة للتركيز والاهتمام، فإن هذا الاتجاه الوظيفي الذي أجمع عليه هؤلاء الباحثون يقرر مبدأً أساسياً هو أن سلامة التركيب تقاس بسلامة دلالته ووضوح معناه، لا بمجرد موافقته للقواعد شكلاً؛ مما يجعل من النحو وسيلة حية لضبط التواصل اللغوي.

المبحث الأوّل: أثر المعنى في توجيه التراكيب الأسميّة في المدونات الحسنيّة

المطلب الأوّل: التقديم والتأخير:

يُعدُّ موضوع التقديم والتأخير في اللغة العربية من المباحث النحوية والبلاغية التي استأثرت باهتمام بالغ لدى العلماء والباحثين قديماً وحديثاً؛ فهو فنٌّ دقيق لا يقف عند حد تغيير مواضع الكلمات في الجملة فحسب، بل يتعداه إلى إحداث تغيير جوهري في دلالات التراكيب وأغراضها الإبلاغية، ولقد أُشبع هذا الموضوع بحثاً وتحليلاً، حتى تكوّنت حوله مذاهب وآراء، واستُنفرت في سبيل فهم دقائقه أهم طاقات التفكير اللغوي، وقد تضافرت جهود النحاة والبلغاء سيبويه إلى عبد القاهر الجرجاني وما بعدهما؛ لتفكيك مستويات التقديم والتأخير، وكشف الأسرار التي يختزنها هذا التغير اللفظي؛ مما جعل منه علماً قائماً بذاته، غنيّاً بالمسائل والتفريعات، وشاهداً على سعة اللغة العربية وثراء أدواتها التعبيرية، ومن أغراض تقديم المسند إليه وتأخير المسند ما يأتي (القزويني, ١٩٨٥، ج٢، ص. ٥٠):

١-تثبيت الخبر في ذهن المتلقي وتقويته؛ لأن تقديم المبتدأ يثير الترقب لمعرفة الخبر، فيكون أوقع في النفس.
٢- المبادرة بإدخال السرور أو إثارة الخوف والتشاؤم، إذا كان المسند إليه؛ مما يُستبشر به أو يُتطير منه، نحو: سعدٌ في دارك، أو السفاحُ في دار صديقك.
٣- الإشارة إلى دوام حضور المسند إليه في الذهن، أو شدة التلذذ بذكره، فيُقدَّم لقربه من الخاطر وكثرة تردده على اللسان.
٤-أن يكون المقصود الأصلي هو الحديث عن المسند إليه لا عن الخبر نفسه، كما في جواب من يسأل: كيف الزاهد؟ فيقال: الزاهدُ يشرب ويطرب؛ إذ الغرض بيان حال الزاهد خاصة.
٥- إفادة الشمول والعموم، وذلك إذا أُريد تعميم الحكم على جميع الأفراد، مثل: كلُّ إنسانٍ لم يقم، فالتقديم هنا يدل على نفي القيام عن كل فرد.
٦-الدلالة على الاختصاص والقصر، ولاسيمّا إذا وقع بعد أداة نفي، كقولك: ما أنا قلتُ هذا؛ أي إن القول قد وقع، لكنه منسوب إلى غيري لا إليّ.
- الأغراض البلاغية لتأخير المسند إليه ما يأتي:(القزويني, ١٩٨٥، ج٢، ص. ٨٠):

- إن تقتضي طبيعة المقام تقديم المسند، وذلك لأسباب متعددة، منها:
- إفادة الاختصاص أو القصر، بحيث يُجعل الحكم مقصورًا على المسند إليه، كقوله تعالى: "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ"[الكافرون:٦]، ومنه قول القائل: تميميٌّ أنا؛ أي أخص نفسي بالانتماء إلى تميم.
- إزالة احتمال كون الكلام صفةً لا خبرًا، فيُقدَّم المسند ليتضح أنه خبر للمبتدأ، كما في قوله تعالى: "وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ"[البقرة: ٣٦]
- إثارة شوق السامع وترقبه لمعرفة المسند إليه؛ لأن تأخيره يدفع الذهن إلى انتظار ما سيأتي بعد الخبر.

- **نماذج من المدونات الحسنيّة وتحليلها:**

تقديم الخبر على المبتدأ:

يستوقفنا في خطاب الإمام الحسن (عليه السلام) ملمحٌ نحويٌّ متكرر، يتمثّل في تقديم الخبر (شبه الجملة) على المبتدأ، وهو أسلوبٌ لم يأتِ اعتباطاً، بل كان مفتاحاً لولوج المعاني البلاغية العميقة، ففي قوله: (عليه السلام)**"أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي فَأَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَأَنَا ابْنُ النَّبِيِّ، وَأَنَا ابْنُ الْوَصِيِّ... وَفِيَّ التَّنْزِيلُ، وَمِنِّي التَّأْوِيلُ"(الطبري, د.ت، ج٥، ص.١٦٢)**، نلحظُ أنَّ تقديم الخبر (فيَّ، مني) على المبتدأ المعرَّف بـ (أل) الجنسية، قد أحدثَ حصراً حقيقياً؛ إذ يُشيّدُ الإمامُ(عليه السلام) بهذا التقديمِ دعامةً علميةً تربطُ حقائق التنزيل وأسرار التأويل بشخصه الكريم، في تقريرٍ بلاغيٍّ يضعُ العلمَ الإلهي في نطاق الاختصاص الحصري لأهل البيت (عليهم السلام)، وهذا التقديم ليس إجرائياً فحسب، بل هو مقتضىً دلاليٌّ يعكس مقام (الاختصاص) و(التفرّد)؛ فتقديم الجار والمجرور هنا يهدف إلى حصر العلم في ذات الإمام(عليه السلام)؛ مما يمنح الخطاب قوةً في الإقناع ووضوحاً في بيان الأحقية العقدية، وهو ما يُبرز كيف وظّف الإمام(عليه السلام) البنية النحوية؛ لتكون خادمةً للمعنى العقدي العميق الذي أراد إيصاله للمتلقي، ويتجلى هذا النسق في موعظته (عليه السلام) حين قال: "**فِي الطَّاعَةِ رِضْوَانُ اللهِ، وَفِي المَعْصِيَةِ سَخَطُ اللهِ"(مجموعة مؤلفين, د.ت، ص. ١٥٢)**؛ إذْ نجدُ أنَّ تقديم الجار والمجرور في صدر الجملة قد وظيفَ لغايةٍ تقريرية؛ لربط النتيجة (الرضوان أو السخط) بعلتها (الطاعة أو المعصية) ربطاً مباشراً؛ مما يمنح الخطاب قوةً في التأثير، وتوكيداً على حتمية هذا التلازم بين الفعل والجزاء، وقد ذهب البلاغيون إلى أن تقديم الجار والمجرور قد يكون للعناية بالمقدَّم، أو لإبراز العلاقة بين طرفي الجملة، أو لإفادة الاختصاص بحسب المقام. والسياق هنا يرجح أن الغرض هو توكيد الارتباط الوثيق بين الطاعة والرضوان، وبين المعصية والسخط؛ إذ إن الإمام (عليه السلام) بصدد تقرير حقيقة أخلاقية وعقدية، فجاء تقديم الخبر لإبراز هذا الارتباط في ذهن المتلقي، وليس بالضرورة أن

يحمل على القصر وحده، ولا يختلفُ هذا التوظيف في وصفه (عليه السلام) لحال الوجود، بقوله: "**فِي الدُّنْيَا غُرُورٌ، وَفِي الْآخِرَةِ سُرُورٌ**"**(مجموعة من الباحثين, د.ت، ص.١٥٢)**، فقد عمدَ الإمامُ(عليه السلام) إلى تقديمِ الخبر (في الدنيا/ في الآخرة) على المبتدأ (الغرور/ السرور)، خروجاً عن أصل الترتيب (الغرور في الدنيا...)؛ لغرضينِ متلازمين: الأوّل هو (الحصر)؛ ليؤطر الغرور بحدود الدنيا والسرور بحدود الآخرة، والثاني هو (التشويق والاهتمام)؛ إذْ صوّرَ الدنيا وعاءً مُحكماً للغرور؛ مما أضفى على التحذير صبغةً بليغة تتجاوز الوصف السطحي إلى الدلالة على الإحاطة، وقد اختلفت توجيهات البلاغيين لمثل هذا التقديم؛ فمنهم من حمله على التشويق والاهتمام بالمقدَّم، ومنهم من رأى أنه قد يفيد تخصيص الحكم إذا دل السياق على ذلك، ويظهر أن السياق الوعظي في هذا النص يرجح أن المقصود هو لفت انتباه السامع إلى الظرف الذي يتحقق فيه كل من الغرور والسرور، فابتدأ الإمام(عليه السلام) بذكر الظرف؛ لأنه محور الرسالة التي يريد إيصالها مع احتمال إفادة الاختصاص تبعًا للمقام، لا على سبيل اللزوم، ويتبيّن من هذه الشواهد أن تقديم الخبر في المدونات الحسنية لا يحمل دلالة واحدة مطردة، وإنما تتحدد وظيفته من خلال السياق ومقتضى الحال؛ فقد يغلب عليه معنى الاختصاص في موضع، بينما يكون الغرض منه في موضع آخر إبراز العنصر المقدم أو توكيد العلاقة الدلالية بين أجزاء التركيب، وهو ما ينسجم مع منهج النحاة والبلاغيين في جعل المعنى والسياق أساسًا في توجيه البنية النحوية وترجيح وجوهها.

تقديم المفعول به:

لا يقفُ تقديم المفعول به في كلام الإمام الحسن (عليه السلام) عند حدود الاستعمال اللغوي المألوف، بل يتجاوزه ليصبح وسيلةً بلاغيةً كاشفة عن المضمون العقدي، ففي قوله(عليه السلام): "**إِيَّاكَ نَدْعُو، وَإِيَّاكَ نَرْجُو، وَلَكَ نُصَلِّي**"**(طاووس الحلي, ٢٠٠٢، ص. ١٤٣)**. نجد أنَّ تقديم المفعول به (إياك) لم يأتِ لغرضٍ بلاغي مجرد، بل هو إعلانٌ عن توحيدِ العبادة وتخصيصها؛ فالتقديم هنا هو القالب الذي صبَّ فيه الإمام(عليه السلام) عقيدة الاختصاص لله وحده، وقد يكون التقديم لإبراز المفعول والعناية به، ويبدو أن التقديم هنا للاختصاص؛ لأن المقام مقام تقرير لعقيدة التوحيد وإفراد الله تعالى بالرجاء والعبادة، ويتجلى هذا النسق في موضعٍ آخر من خطابه، حين قال(عليه السلام): "**أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَنِي فَقَدْ عَرَفَنِي، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْنِي فَأَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ، وَأَنَا ابْنُ النَّبِيِّ، وَأَنَا ابْنُ الْوَصِيِّ، وَأَنَا ابْنُ الْبَشِيرِ، وَأَنَا ابْنُ النَّذِيرِ، وَأَنَا ابْنُ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ، وَأَنَا ابْنُ السِّرَاجِ الْمُنِيرِ، وَأَنَا مِنَ أَهْلِ الْبَيْتِ الَّذِينَ كَانَ جَبْرَئِيلُ يَهْبِطُ إِلَيْنَا وَيَصْعَدُ مِنْ عِنْدِنَا، وَأَنَا ابْنُ الَّذِي كَانَ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ**"(أبو الفرج الأصفهاني, د.ت، ص.٣٣). نجدُ أنَّ الإمام الحسن (عليه السلام) قد وظَّف التقديم النحوي لتقرير حقائقَ عقديةٍ كبرى؛ إذ يقول في معرض تعريفه بنفسه (وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) إنَّ تقديم المفعول به (الهاء) على الفاعل (لفظ الجلالة) في هذا السياق لم يكن عفوَ خاطرٍ، بل هو إشارةٌ بلاغيةٌ تومئُ إلى اختصاصِ أمير المؤمنين (عليه السلام) بالمحبة الإلهية، وهنا نلمسُ كيف يطوّع الإمامُ(عليه السلام) القواعد النحوية، ومنها تقديم المفعول به؛ لتكون أداةً بيانيةً تخدمُ إثباتَ المنزلة العظيمة لأهل البيت (عليهم السلام) في النسق القرآني والنبوي، فهنا التقديم استعمل لتأكيد انصراف الخطاب إليهم وهو توجيه تؤديه القرينة المقامية من دون أن يُفهم من ذلك أن تقديم المفعول به يفيد الاختصاص في جميع مواضعه، وهذا المنحى نفسه نلحظه في قوله(عليه السلام): "**إِيَّانَا عَنَى اللهُ بِقَوْلِهِ: "إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**"**(مجموعة من الباحثين, د.ت، ص. ٤٣٤)**؛ إذ يربط الإمام (عليه السلام) بين الآية الكريمة والتقديم النحوي؛ ليؤكد أنَّ (إيانا) هي المعنية حصراً بالتطهير، رابطاً بذلك بين قواعد اللغة ودلالات النص العقدي، وهذا الربط يُعد وجهاً من وجوه المعنى؛ إذ إن تقديم المفعول به في سياق الخطاب الإلهي يوجه ذهن السامع فوراً نحو "المختص بالحدث"، فيحيل الذهن من التعميم إلى التخصيص، وهو ما يجعل البنية النحوية هنا (توجيهاً دلالياً) يمنع أي تأويلٍ بعيدٍ عن المقصد العقدي؛ فالتوجيه النحوي هنا هو الذي يُحكم دلالة المعنى ويحميها من التشتت، محولاً النص من مجرد خبرٍ إلى حقيقةٍ ثابتةٍ لا تقبل التأويل، ويتضح من هذه الشواهد أن تقديم المفعول به في المدونات الحسنية لا يؤدي دلالة واحدة على نحو

مطرد، وإنما تتحدد وظيفته في ضوء السياق والقرائن المصاحبة؛ فقد يغلب عليه معنى الاختصاص في بعض المواضع، بينما يكون الغرض منه في مواضع أخرى إبراز المفعول أو توجيه اهتمام المتلقي إليه، الأمر الذي يؤكد أن المعنى هو الأساس في توجيه البنية النحوية وترجيح أحد وجوهها.

تقديم شبه الجملة (الجار والمجرور أو الظرف) على الفعل والفاعل

تعدّ الفضلة في الجملة الفعلية –من ظروف وجار ومجرور– مادةً خصبةً للتوظيف البلاغي؛ إذ يخرجُ بها الإمامُ الحسن (عليه السلام) عن رتبة التأخير الأصلية إلى التقديم، لغاياتٍ بيانيةٍ تتراوحُ بين التشويق، والتهويل، وتأكيد الاختصاص. ففي خطبته التأبينية في مسجد الكوفة، يقول: (عليه السلام)**"لَقَدْ قُبِضَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ رَجُلٌ لَمْ يَسْبِقْهُ الأَوَّلُونَ بِعَمَلٍ"(أبو عبد الله الحاكم النيسابوري, ١٩٩٠، ج٣، ص. ١٨٣)**؛ إذ قدّم الظرف والجار والمجرور (فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ) على نائب الفاعل، ولم يكن هذا التقديمُ لمجرد التجويد اللفظي، بل هو استباقٌ بليغٌ لتهويل الفاجعة وتفخيمِ الحدث، مُهَيِّئاً به نفوسَ السامعين قبل التصريح بعظيم الفقد، وفي السياق السياسيّ والاجتماعي، وقد يكون الغرض منه لفت انتباه السامع إلى الزمان الذي وقع فيه الحدث، وقد يحمل على تفخيم شأن المناسبة وإثارة التشويق، ونلمسُ هذا التقديم في قوله (عليه السلام) مبيناً أسس العهد: "**وَبِالْجَمَاعَةِ أَمَرَنَا اللهُ، وَعَنِ الْفُرْقَةِ نَهَانَا"(أبو بكر الخطيب البغدادي, ٢٠٠١، ج١، ص. ١٤٠)**؛ إذ أثّر تقديم الجار والمجرور (بالجماعة/ عن الفرقة) على الفعل والفاعل في إيقاعِ الحصر والتوكيد؛ مُبرزاً الجماعةَ والفرقة كقطبي الرحى في مشروعه الإصلاحي، ومؤكداً أنَّ التكليف الإلهي مقدّمٌ على ما سواه من الاعتبارات، ويتجلّى التقديم كأداة توحيدية في قوله: "**مِنَ اللهِ نَسْأَلُ التَّوْفِيقَ لِطَاعَتِهِ"(مجموعة من الباحثين, د.ت، ص. ٣١٢)**؛ إذ إنَّ تقديم (من الله) على الفعل (نسأل) يرسّخُ في ذهن السامعِ أنَّ القصدَ والطلبَ محصورٌ في الله وحده، وهو مسلكٌ بيانيٌ يدمجُ بين البناء النحوي والانكفاء الروحي نحو الخالق وتدل الشواهد السابقة على أن تقديم متعلقات الأفعال في خطاب الإمام الحسن (عليه السلام) ارتبط بوظائف دلالية متعددة، منها توكيد المعنى وتخصيصه أو إبراز بعض عناصره، وهو ما أسهم في تعزيز الأثر البلاغي للنص.

المطلب الثاني: الحذف والتقدير:

يعدّ الحذف من أبرز خصائص العربيّة، وقد وصفه ابن جني (ت ٣٩٥هـ) بأنّه مظهرٌ من مظاهر "شجاعة العربية" وتستند على الإيجاز والاختصار مع الحفاظ على دلالة المعنى.

أولاً: مفهوم الحذف والتقدير

الحذف في اللغة: هو "حَذْفُ الشيءِ: إسقاطُه. يقال: حَذَفْتُ من شَعْري ومن ذَنَبِ الدابَةِ، أي: أخذتُ منه"(الجوهريّ، إسماعيل بن حماد, ١٩٩٠، ج٢، ص. ٤٨٩)، أمّا في الاصطلاح: "الحذفُ هو إسقاطُ جزءٍ من الكلام، أو كلِّه لدليلٍ يدلُّ عليه"(الزركشي، بدر الدين, ١٩٨٤، ج٢، ص.١٥٢)، وقال الجرجانيّ: "وموضعُ الحذفِ في الكلامِ هو موضعُ الغرضِ الذي لأجلهِ يُحذفُ اللفظُ؛ فإذا حُذفَ المفعولُ، عُلِمَ أنَّ الغرضَ هو الفعلُ لا المفعولُ"(الجرجانيّ، عبد القاهر, ١٩٩٢، ص.١٠٥)، وقد عُرف التقدير في اللغة: "مبلغ كل شيء... والتقدير: قياسه"" (الفيروزآبادي،د.ت، ص. ١٠٣٢)، أمّا في الاصطلاح فقد عرفه السيوطيّ بأنّه: "هو اعتبارُ ما ليس في اللفظِ كأنه فيه، لدليلٍ يقتضي ذلك، ليتمَّ به المعنى أو تستقيمَ به القواعد"(السيوطي, ١٩٧٦، ص. ١٥٨)، ويقول ابن جني: "إنّ في العربية من باب الحذف ما يُؤتى فيه ببعض الجملة دليلاً على جملة، فاستغنى بذكر ما ذُكر عما حُذف"(ابن جني, ١٩٥٢، ج١، ص. ٣٦٤)، فالحذف يقع في الجملة لدليل يدلّ عليه.

ثانياً: أثر السياق في تقدير المحذوف

السياق هو الموجه الأوّل لفهم الكلام، وهو بمثابة الإطار الذي يحيط باللفظ ويحدد وظيفته والحذف يكون بوجود قرينة (لفظية أو حالية) تدلّ على المحذوف؛ فإذا غاب السياق أو القرينة، تعذر التقدير ووقع اللبس، هنا يبرز دور السياق في (تحديد المعنى)؛ إذ لا يعمل السياق كوعاءٍ جامد، بل كقوةٍ فاعلة تُضيّق احتمالات الدلالة وتُقصي التأويلات البعيدة؛ لتُحصرَ المعنى في وجهٍ واحدٍ يستقيم معه الخطاب؛ فالسياق هو الذي يسوّغ التقدير، ومن دونه يغدو كل تقديرٍ احتملاً عشوائياً لا ضابط له؛ مما يجعل المعنى في الخطاب نتيجةً حتميةً لتفاعل اللفظ مع سياقه المحيط.

١-**السياق اللغوي:** وهو المحيط المباشر للكلمة داخل النص (ما قبلها وما بعدها). فعند قولنا: (الحمد لله)، فإن السياق يفرض تقدير خبرٍ محذوف، والتقدير: (الحمد لله كائنٌ أو مستحقٌ للحمد)، فهذا التقدير استُمد من البنية التركيبية للجملة.

٢-**سياق الحال (المقام):** وهو الموقف الذي يُقال فيه الكلام. ففي قوله تعالى: "**وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**"[الزمر: ٧٣]، يُقدر المفسرون جواباً محذوفاً (لرأوا شيئاً عظيماً)، وهذا التقدير نابع من دلالة المقام وسياق الترهيب والتعظيم في الآية، وقد أكّد الزركشيّ أهمية هذا الربط بين الحذف والسياق بقوله: "كل حذفٍ في القرآن وغيره فلابد له من دليلٍ يدل عليه من لفظٍ أو سياقٍ أو حالٍ"(الزركشي، بدر الدين, ١٩٨٤، ج٢، ص. ١٥٢).

ثالثاً: دلالة التقدير في التراث النحويّ

لم يكن التقدير عند النحاة مجرد خيال، بل كان تقنيّةً لضبط (نظرية العامل)؛ فإذا وجد العامل (مثل حروف الجر أو الأفعال المتعدية) وجب تقدير المعمول (المحذوف) لضمان استقامة النحو، فذهب ابن جني إلى أن التقدير وسيلة نحوية يُلجأ إليها عند الحاجة لتوجيه التراكيب وبيان ما قد يعتريها من حذف أو إضمار، إلا أنه اتخذ موقفًا نقديًا متوازنًا تجاه الإفراط في استعماله؛ إذ فرّق بين التقدير الذي تقتضيه الضرورة النحوية والتقدير المتكلَّف الذي يبتعد عن طبيعة الاستعمال اللغوي، وقد عدَّ التقدير نوعًا من الترفق في تفسّير الكلام، غير أنه نبَّه إلى ضرورة عدم التوسع فيه من دون مسوغٍ قوي؛ مؤكدًا أن حمل الكلام على ظاهره أولى من اللجوء إلى الافتراضات البعيدة، ما دام المعنى يستقيم من غير تقدير؛ لأن الأصل اعتماد الحقيقة قبل المجاز، والأخذ بالظاهر قبل المصير إلى المضمر(ابن جني, ١٩٥٢، ج١، ص. ٣٦٨)، وبذلك يكشف موقفه عن نزعةٍ منهجية تميل إلى الاقتصاد في التأويل والالتزام بما تدل عليه البنية اللغوية في ظاهرها، فالتقدير ركيزة أساسية لا غنى عنها لضبط التراكيب؛ للكشف عن الحذف والإضمار.

رابعًا: نماذج من المدونات الحسنيّة:

حذف المبتدأ:

يُعدُّ حذف المبتدأ في كلام الإمام الحسن (عليه السلام) أداةً توظيفيةً لتعظيمِ المسند؛ إذ يؤثر (عليه السلام) البدءَ بالخبرِ في مقاماتٍ تستدعي استحضارَ الصفةِ قبلَ استحضارِ الموصوف؛ استغراقاً في المعنى، وتوجيهاً لذهنِ المتلقي نحو الحكمِ مباشرة، ففي مناجاته (عليه السلام): "مَوْلًى كَرِيمٌ، لَا يَخِيبُ سَائِلَهُ، وَلَا يَرُدُّ آمِلَهُ"(مجموعة من الباحثين, د.ت، ص.٣١٥). نجدُ انصرافاً عن ذكر المبتدأ (الله)؛ إيذاناً بأنَّ صفاتِ الجلالِ والكمالِ هي المهيمنةُ على مجمعِ الدعاء، فالحذفُ هنا ليسَ تقديراً فحسب، بل هو إقرارٌ بظهورِ الخالقِ في قلبِ الداعي بحيث لا يحتاجُ معهُ إلى ذكرهِ لفظاً؛ ليغدو الخبرُ (مولى كريم) بؤرةَ التركيزِ

الوجدانيّ في مقامِ الثناء، وعلى نهجٍ مماثلٍ في التنبيهِ والتحذير، يبرزُ هذا الحذفُ في قوله: "مَغْرُورٌ مَنْ غَرَّتْهُ، وَمَخْدُوعٌ مَنْ خَدَعَتْهُ"(الحراني،١٤٠٤، ص.٢٣٢)؛ إذْ يضعُ الإمامُ (عليه السلام) حكمَ (مغرور/ مخدوع) في صدارةِ المشهدِ قبلَ الإشارةِ إلى الفاعلِ (من)؛ ليكونَ الحكمُ –الذي هو الخبر– هو الابتداءُ في وعيِ السامعِ قبلَ معرفةِ الشخصِ المعنيّ. هذا التقديمُ عبرَ الحذفِ يمنحُ النصَّ صبغةً تعميميةً مُطلقة؛ فكأنَّ كلَّ من سلكَ مسلكَ الغفلةِ مستحقٌّ لهذا الوصفِ ابتداءً، وبذلك يتحولُ الحذفُ من مجردِ إجراءٍ نحويٍّ إلى وسيلةٍ ترفعُ من حدةِ التنبيهِ وتُبرزُ النتيجةَ كواقعٍ حتميٍّ لا يقبلُ التأخير.

حذف المفعول به:

يُعدُّ حذف المفعول به في كلام الإمام الحسن (عليه السلام) تقنيةً بيانيةً تتجاوز الاختصار اللفظي إلى إرادة الإطلاق الدلالي؛ إذ يسعى الإمامُ من خلال هذا الحذف إلى تعميمِ الجزاء، بحيث يغدو المعنى أوسعَ من أن يُقيَّد بمفعولٍ به واحد، ففي قوله(عليه السلام) **"يَا ابْنَ آدَمَ، عَفِّ نَفْسَكَ، وَاصْبِرْ تَنْلْ"(الحراني، ١٤٠٤، ص.٢٢٥)**. نجدُ حذفاً للمفعول به في الفعل (تنل)؛ ليكونَ الجزاءُ مطلقاً يشملُ كلَّ ما يصبو إليه المرءُ من خيراتِ الدنيا والآخرة، فلو ذُكرَ (مبتغاك)؛ لتقيدَ المعنى بحدودِ اللفظ، بينما الحذفُ فتحَ آفاقَ الرجاءِ على إطلاقها، وهذا النزوعُ نحو التعميم يظهرُ جلياً في قوله(عليه السلام) **"يا ابن آدم، اطلب الحلال، تُكفَ مؤونتهُ"(الحراني،, ١٤٠٤، ص.٢٢٧)**، فالفعل (تُكفَ) سُلِبَ منه مفعولُه ليتسعَ ليشملَ كفايةَ اللهِ للعبد في كلِّ شؤونِ معاشه ومعاده، فالحذفُ هنا لا يعني الغيابَ بقدرِ ما يعني (الشمول) لكلِ ما يحتاجهُ الإنسانُ من مؤونةٍ وعنايةٍ إلهية، وعلى المنوال ذاته، يأتي قوله (عليه السلام) **"فخذ مما في يدك لما في يديك"(الحراني،, ١٤٠٤، ص.٢٢٧)**؛ إذ نلحظُ إضماراً للمفعول به في فعل الأمر (فخذ)؛ ليكونَ (الزادُ) الذي يحثُّ عليه الإمامُ(عليه السلام) مفتوحاً على كلِّ عملٍ صالحٍ يُدّخرُ للآخرة، فالحذفُ هنا يمنحُ المتلقي مساحةً من التأويلِ للقيامِ بأيِّ فعلِ خيرٍ يراهُ مناسباً؛ مما يُضفي على الوصيةِ طابعاً توجيهياً مرناً لا يحدّه لفظٌ بعينه.

المبحث الثاني: أثر المعنى في توجيه التراكيب الفعلية في المدونات الحسنيّة:

المطلب الأوّل: التعدية واللزوم.

لقد استقرّ المفهومُ النحويُّ للفعل في الدرس العربي على تقسيمٍ ثنائيٍّ محكومٍ بطبيعةِ العلاقةِ بين الفعلِ وفاعله، وهو ما أصلَ له النحويّون في مباحث (التعدية واللزوم)، فقد علل سيبويه هذه الظاهرةِ إجرائياً، فذهب إلى أنَّ الفعلَ المتعدي يمتلكُ طاقةً بنيويةً تتيحُ له الإفضاءَ إلى المفعول مباشرةً؛ إذْ يصفُه بكونه "بمنزلةِ الشيءِ الذي تأخذهُ فتضعهُ على غيره"(سيبويه, ١٩٨٨، ج١، ص. ٢٤، والزامليّ، لبابيديّ، ٢٠٢٤م، ص. ١٤)، وهو ما يشيرُ إلى أنَّ التعديةَ ليست مجردَ حكمٍ نحويٍّ، بل هي دلالةٌ على انتقالِ التأثيرِ من الفاعلِ إلى المفعولِ من دون وسيط، وقد عرّف ابن هشام الأنصاري الفعل المتعدي بكونه: "ما يتجاوزُ فاعلهُ إلى مفعولٍ به" (ابن هشام, ١٩٦٦، ج١، ص. ٢٤٨) جاعلاً من (هاء الضمير) معياراً اختبارياً لقبول الفعل للتعدي (ضَرَبَهُ، نَصَرَهُ)، في مقابل الفعل اللازم الذي ينحصرُ أثرُه في فاعله ولا يقبلُ هذا الضمير.

توجيه الفعل بحسب المعنى في المدونات الحسنيّة:

يُشير (توجيه الفعل بحسب المعنى) في الدراسات النحوية والبلاغية إلى خروج الأفعال عن مقتضى دلالتها الأصلية لخدمة سياقٍ بيانيٍ أو دلاليٍ معين، وهو ما يُعرف في الدرس النحوي بـ (تضمين الأفعال)؛ أي أن يُعطى فعلٌ معنى فعلٍ آخر ليتعدى تعديته، أو ليوجه دلالته نحو غرضٍ معين.

التضمين وتوجيه دلالة الفعل بما يلائم المقام (التعدية واللزوم)

يُشتق الضمين في اللغة مادة (ضمم)، والضمُّ هو الجمع؛ يُقال: ضَممتُ الشيءَ إلى الشيءِ ضَمّاً؛ أي جعلته يشتمل عليه أو أدخلته فيه(ابن منظور,د.ت، ج١٢، ص.٣٤٦)، فالتضمين في أصله اللغوي يحمل معنى الإدماج والاحتواء، وهو ما يتسق مع المعنى الاصطلاحي في إدماج معنى فعلٍ في فعلٍ آخر، **وهو ما** ذهب إليه ابن جني من أنَّ الأفعال قد تتداخل في معانيها بناءً على المقتضى الدلالي، فيقول: "وذلك أنَّكَ تعمدُ إلى الفعلِ المؤدّي لمعنى، فتستعملُه مكانَ فعلٍ آخرَ قد أُشربَ مَعناهُ؛ ليدلَّ على المعنيينِ جميعاً... ومن ذلك قولُه تعالى: "عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ"[الإنسان: ٦]، فضمّن (يشرب) معنى (يروى)، فعدّاه بالباء التي تتعدى بها (يروى)(ابن جني, ١٩٥٢، ج٢، ص. ٢٦٢-٢٦٣)، وفي خطاب الإمام الحسن (عليه السلام) لا نجد الفعل مجرد حدث زمن، بل نجده مشحوناً بدلالات تتجاوز أصله المعجمي، تأمل قوله (عليه السلام): "**فَإِنَّ الدُّنْيَا لَوِ اسْتَغْنَتْ عَنْ بَاقٍ، لَكَانَ الْأَوْلَى بِهَا أَنْ تَسْتَغْنِيَ عَنْ فَانٍ**" (الحراني، ١٤٠٤، ص. ٢٢٨)، فهنا الفعل (تستغني) يحمل دلالة (البقاء الخالد) و(الاستقرار الذاتي)، بينما الدلالة الأصلية هي الاكتفاء عن الشيء، فوجه الإمام (عليه السلام) الفعل من معنى (الاكتفاء) إلى معنى (الاستغناء عن الزوال)، وهذا يسمّى في البلاغة بـ(توسيع الدلالة)؛ إذ استثمر الإمام (عليه السلام) القدرة التركيبية للفعل؛ ليحقق غرضاً وعظياً يتمثل في تصوير زوال الدنيا حتميةً لا تملكُ الفكاك منها، وقد ضمّن الفعل (يستوحش) معنى البعد والنفور في قوله(عليه السلام): "**لَا يَعْرِفُ الْحَقَّ إِلَّا مَنْ يَعْرِفُ الْبَاطِلَ، وَلَا يُؤْنَسُ بِالْهُدَى إِلَّا مَنْ يَسْتَوْحِشُ مِنَ الضَّلَالَةِ**"(الحرانيّ، ١٤٠٤، ص. ٢٣٣)، ومما أثر عن الإمام (عليه السلام): "**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَيْسَ بِتَارِكِكُمْ سُدًى**" (المجلسي, ١٤٠٣، ج٤٤، ص.١٩٠)، فقد ضمّن اسم الفاعل (تارك)؛ إذْ نُقِلَ من دلالةِ التركِ الماديّ المجرّدِ إلى دلالةِ (الإهمالِ والغفلةِ)، فكأنَّ المتكلمَ يُشيرُ إلى أنَّ الذاتَ الإلهيةَ لا تغفلُ عن شؤونِ الخلق. هذا التوجيهُ الدلاليُّ للفظِ (تارك) يربطُ بين التركيبِ النحويّ والغايةِ العقديةِ في ترسيخِ مفهومِ الرقابةِ الإلهية؛ مما يجعلُ الفعلَ حاملاً لمعنى (الإهمال) في طياتِ التنازلِ عن الفعلِ الماديّ، وكذلك في قوله (عليه السلام): "**يَا ابْنَ آدَمَ، عَفِّ نَفْسَكَ، وَاصْبِرْ تَنْلْ**"(الحراني,, ١٤٠٤، ص.٢٢٥)، فالفعل (عفَّ) من الأفعال اللازمة، وقد تضمّن معنى فعل آخر بتقديرِ معنى (اكفُفْ) أو (اصرف)، فصارت (نفسَك) مفعولاً بهِ للفعلِ المضمّن، لقد عكس هذا التعديُ صراع الذات مع أهوائِها؛ فالعفةُ لم تعد حالةً من الامتناعِ السلبيّ، بل غدت فعلاً إرادياً مُوجَّهاً نحو النفسِ لضبطِ جماحِها، وهو ما يُضفي على الوصيةِ طابعاً تربوياً مُكثّفاً.

يتبيّن لنا أنّ التحليل اللغويّ لمدونات الإمام الحسن (عليه السلام) يبرز قيمة بلاغية لظاهرة التضمين في خطابه؛ إذ لم يقتصر توظيفها على الجانب النحوي أو البياني، بل اتخذت وظيفة دلالية أسهمت في توسيع آفاق المعنى وتعزيز المقاصد التعبيرية، وقد أظهرت النصوص قدرةً واضحة على استثمار طاقات الفعل اللغوي عن طريق نقله من دلالته الأصلية إلى دلالات أرحب تقتضيها سياقات الخطاب، سواء أكان ذلك بتجاوز حدود اللزوم، أم بتوسيع مجالات التعدية.

المطلب الثاني: العدول التركيبي في المدونات الحسنيّة:

يُعدُّ (العدول التركيبي) في الدراسات الأسلوبية خروجاً مقصوداً عن النمط النحوي المألوف أو الترتيب الرتبي المعتاد للجملة، بقصد إحداث أثر بلاغي وتوجيه المعنى نحو أبعاد تداولية دقيقة، وهو ما اصطلح عليه البلاغيون بـ(الخروج على مقتضى الظاهر)، فيرى ابن جني أنَّ طواعيةَ اللغة للعدول هي مظهرٌ من مظاهر فصاحتها، فيقول: "وإذ قد تبينَ لكَ حُسنُ استعمالِ العربِ لكلامِها، وأنَّها تَعدِلُ بالكلمةِ عن موضعِها إلى غيرِه، لما يقتضيهِ الحالُ من المعنى الذي لا يُؤديهِ موضعُها الأصليُّ، فاعلمْ أنَّ هذا العدولَ هو مِلاكُ البلاغةِ ومحورُ التعبيرِ الفنيّ الذي يُميّزُ الكلامَ البليغَ من الكلامِ المبتذلِ"(ابن جني, ١٩٥٢، ج١، ص. ٣٤٨)، وذهب عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ) في (دلائل الإعجاز) إلى أنَّ العدولَ هو الذي

يُكسبُ الكلامَ (ماءً ورونقاً)، وأنَّ العقلَ هو من يقودُ هذا العدولَ لخدمةِ المعنى: "فليسَ يصحُّ أن يكونَ العدولُ عن الترتيبِ المألوفِ في الكلامِ إلى غيرِه، إلا لِغرضٍ دقيقٍ يُرادُ إبرازُهُ؛ كأن يُؤثِرَ المتكلمُ تقديمَ المفعولِ على الفاعلِ إيذاناً بعنايتِهِ به، أو يُقدّمَ الظرفَ؛ ليكونَ الكلامُ أوقعَ في نفسِ السامعِ، فكلُّ ذلكَ خروجٌ عن مقتضى الظاهرِ المعتادِ إلى ما هو أبلغُ في الغرضِ المنشودِ"(الجرجانيّ، عبد القاهر, ١٩٩٢، ص.٨٩)، وقد ذكر السكاكيّ (ت ٦٢٦هـ) الأغراض البلاغيّة للعدول بقوله: "وإذا أردتَ أن تتكلمَ بشيءٍ على خلافِ مقتضى الظاهرِ، فالتفتْ إلى ما هو المقتضى الظاهرُ، ثمَّ انظرْ: هلِ المقامُ يقتضي أن تخرجَ عنه إلى ما هو أبلغُ؟ فإذا اقتضى المقامُ ذلك، فافعلْ، كمن تكلّمَ في غيرِ ما تقتضيهِ الحالُ، فإنه قد عدلَ عن الجادةِ لغرضٍ بلاغيٍّ لا يُدركُهُ إلا المتمرسُ بالبلاغةِ"(السكاكي, ١٩٨٧، ص. ٤١٢)، وقال ابن الأثير(ت٦٣٧هـ): " إنَّ المعانيَ إذا وُضعتْ في غيرِ أساليبِها، زالتْ عنها رونقُها، كما أنَّ الصورةَ الجميلةَ إذا وُضعتْ في ثيابٍ رثةٍ زالَ حُسنُها. فالتقديمُ والتأخيرُ ليسَ من بابِ الترفِ اللفظيّ، بل هو من بابِ (إصابةِ الغرضِ)؛ إذْ تارةً يقتضي المقامُ تقديمَ الشيءِ للاهتمامِ به، وتارةً يقتضي تأخيرَهُ ليكونَ أوقعَ في النفسِ، فمن أتقنَ هذا التغييرَ فقد أتقنَ صنعةَ الكلامِ"(ابن الأثير, د.ت، ص.١٦٤)، ويؤكد القزوينيّ(ت ٧٣٩هـ) في (الإيضاح) أنَّ العدولَ يتبعُ تلوّنَ المقاماتِ، فالبليغُ هو مَن يوازنُ بين مقتضى الحالِ وضرورةِ العدول: "وأمّا الخروجُ عن مقتضى الظاهرِ ففيهِ من الأغراضِ ما لا يُحصرُ، كالتّنكيرِ للتّفخيمِ، والتعريفِ للتعظيمِ، والتقديمِ للاختصاصِ... فلو لم يَعدلْ البليغُ عن ظاهرِ الكلامِ في هذهِ المقاماتِ إلى ما يناسبُ مقتضى الحالِ، لخرجَ كلامُهُ عن حدِّ البلاغةِ وصارَ ركيكاً لا يُمكّنُ في نفسِ السامعِ"(القزويني, ١٩٨٥، ص. ١٦٣)، ومن هنا يتّضح أنّ العدول أسلوب بليغ فيحول اللغة من أداة تواصل جافة إلى بنية فنية مملوءة بالدلالات النفسيّة والسياقيّة، ومنه أيضًا قوله (عليه السلام) "**إِذَا أَرَدْتَ عِزّاً بِلَا عَشِيرَةٍ، وَهَيْبَةً بِلَا سُلْطَانٍ، فَاخْرُجْ مِنْ ذُلِّ مَعْصِيَةِ اللهِ إِلَى عِزِّ طَاعَتِهِ**"**(المازندراني,١٣٨٨، ج١١، ص. ٣٤٢)**، فهنا جاء العدول بالشرط للربط السببي، وذلك عن طريق ربط النتيجةِ (العز) بالسبب (الخروج من المعصية) ربطاً حتمياً؛ مما يجعلُ العدولَ هنا أداةً برهانية، ومن أنواع العدول التي وردت في أقوال الإمام (عليه السلام) هو العدول بالتعريف للتعظيم والمقابلة والتكرار، فقال (عليه السلام): "**أَكْيَسُ الْكَيِّسِ مَنْ كَانَ تَقِيّاً، وَأَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ كَانَ عَاجِزاً**"(الصدوق, ١٣٦١، ص. ١٨٨)، ففي هذا النصّ اعتمد الإمامُ (عليه السلام) هنا على (التعريف بالمعرفة) (أكيَسُ الكيّسِ) مع التضاد في المسند، فهذا التحولُ من مجردِ الوصفِ النكرةِ إلى إضافةِ اسمِ التفضيلِ إلى معرفةٍ (الكيّس) يُعدُّ عدولاً بلاغياً يُفيدُ الحصرَ والمبالغة؛ فكأنَّ الكياسةَ لا تتحققُ إلا في (التقوى) إنَّ هذا التكوينَ التناظريَّ (أكيَس... أعجَز) يُنتجُ دلالةً سياقيةً تضعُ المتلقي أمام خيارين وجوديين لا ثالث لهما؛ مما يمنحُ النصَّ قوةً إقناعيةً مستمدةً من التوازنِ التركيبي، وكذلك تكرار جذر الكلمة (أكيَسُ الكيّسِ، وَأَعْجَزُ عَاجِزاً)، فهنا تكرار اشتقاقي، فهذا النوع من التكرار يحول القول من مجرد موعظة إلى قاعدة معرفية ذات رنين موسيقي عالٍ، وكذلك ورد العدول بالتكرار لغرض الإحاطةِ والاستيعاب في قوله: (عليه السلام): "**الْحِلْمُ زَيْنٌ، وَالْوَفَاءُ مُرُوَّةٌ، وَالْعَجَلَةُ سَفَهٌ**"(الحراني،, ١٤٠٤، ص.٢٣٠)، فهنا عدول بالحذف والتكرار، فالحذف لأجل التعميم فقد حُذف (هو) رابط الجملة الإسميّة، واقتصر على المبتدأ والخبر؛ للتركيزِ على (جوهرِ القيمةِ) مباشرةً من دون وسيط؛ مما يزيدُ من قوةِ التقريرِ البلاغي، وتمثلت قرينة التكرار بتكرار الصيغة النحويّة في القول نفسه يُمثّلُ (التكرارَ الهيكليَّ) أو (التوازي التركيبي)، فهذا التكرار في كلِّ فقرةٍ هو عدولٌ عن التنويعِ؛ لإضفاءُ طابعِ الإطلاقِ واليقينِ على هذه الأحكامِ الأخلاقيةِ؛ مما يُعطي انطباعاً بأنَّ هذهِ الصفاتِ قوانينُ كونيةٌ لا تقبلُ التشكيك، وبعد التحليلُ الأسلوبيُّ لمدوناتِ الإمامِ الحسنِ (عليه السلام) ندرك استراتيجيةٍ لغويةٍ تعتمدُ على (العدولِ التركيبيّ) كآلةٍ تداوليةٍ لتوجيهِ المعنى، إنَّ استقراءَ نصوصِهِ يُظهرُ نزوعاً واعياً عن الأنماطِ النحويةِ المألوفةِ (كالحذفِ، والتقديمِ، والتكرارِ)؛ إذْ لم تعدِ الجملةُ في خطابهِ مجردَ بنيةٍ إخباريةٍ، بل غدت (بنيةً إيقاعيةً) مشحونةً بالدلالاتِ التربويةِ والقيمية.

المطلب الثالث: القرائن الدلاليّة وأثرها في الترجيح النحوي:

١. القرينة اللفظية (الرتبة، الإعراب، التذكير والتأنيث):

يُعدّ ابن جني الرائد الأوّل الذي أرسى دعائم القرينة المعنوية والسياقية؛ إذ ربط بين اللّفظ وما يحيط به من مقال وحال، فقال في معرض حديثه عن تقدير المحذوف وترجيح الإعراب: "وكذلك قد يحذف الفعل، ويقوم غيره مقامه؛ لدلالة الحال عليه، كقولهم: (في الدار زيد)، فالمعنى: (مستقرّ) في الدار زيد، فاستغنينا بذكر الظرف عن ذكر الفعل، لدلالة الحال على هذا التقدير"(ابن جني, ١٩٥٢، ج١، ص. ٣٨)، وقال أيضًا: "إنما جُعلت الحركة في الإعراب دليلاً على المعنى"(ابن جني, ١٩٥٢، ج١، ص.٣٨)، فالإعراب بحد ذاته قرينة لفظية ترفع اللبس بين الفاعل والمفعول، أما الجرجاني فقد نقل القرائن من الحيز النحوي الصرف إلى (نظرية النظم)؛ إذ يرى أن ترجيح وجه على آخر لا يعود لفرادى الألفاظ، بل للقرائن التي تربط بينها في السياق، فقال: "إنك لا ترى لفظةً تُنظَم إلى أختها، فتكون منها في محل، حتى يكون هناك قرينةٌ توجب ذلك الترتيب، وتصرف الأمر عن غيره"(الجرجانيّ، عبد القاهر, ١٩٩٢، ص.٤٢).

٢- القرينة السياقية (المقام والمقال):

يرى اللغويّون أنّ السياق هو الذي يعين مراد المتكلم حين تحتمل اللفظة أكثر من معنى (كالمشترك اللفظي)، وقد توسع الأصوليون في هذا، لاسيّما عند دراسة (دلالة الحال)(الزركشي, ١٤٢١، ج٣، ص.٤١٥)، ولقد ركز الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) في (الموافقات) على القرينة كأداة لفهم الخطاب، وربطها بالمقاصد؛ إذ قال: "الأدلة إذا تعارضت في الظاهر، تعيّن المصير إلى القرائن الحالية والمقامية؛ لأن الكلام لا يدرك معناه إلا بضميمة ما احتف به من القرائن، وإلا صار الكلام مهياً لكل وجه، وهذا خروج عن وضع لسان العرب(الشاطبي, ١٤١٧، ج٢، ص.٦٧).

٣-القرينة المعنوية (الدلالة العقلية والمنطقية):

هي التي يرجح بها النحوي وجهاً على آخر إذا استوى اللفظ وسياق الكلام، وتسمّى أحياناً بـ(قرينة التقدير الأليق)أو (القرينة الدلالية)، يقول ابن هشام: "فإن تعارضت الأقيسة، عُدِل إلى المعنى الأرجح الذي يقتضيه العقل"

(ابن هشام, ١٩٦٦، ج٢، ص.٦٨٠)، وهو يرى أنّ القرينة هي المرجح الوحيد الذي يمنع العبث في التفسير.

القرائن الدلاليّة في المدونات الحسنيّة:

تتجلى البراعة اللغويّة عند الإمام الحسن (عليه السلام) في توظيف (القرينة اللفظية)؛ وهي تلك القرائن التي تعتمد على التركيب، أو المطابقة النحوية، أو الرتبة، أو الإعراب؛ لتوجيه المعنى وتحديده؛ مما يمنع اللبس ويحقق الإيجاز البليغ، ومن ذلك قوله(عليه السلام): "**نَحْنُ ريحانتا رَسُولِ اللهِ" (الطبراني, ١٤٠٤، ج٣، ص.٦٣)**، فالقرينة لفظية هنا (خبرية) ترجيح رفع (رياحين) على أنها خبر المبتدأ (نحن)، وتوظيف التشبيه البليغ كقرينة دلالية، ومنه قوله(عليه السلام): "**أَعظَمُ النَّاسِ قَدْراً مَن لَم يُبَالِ الدُّنْيَا فِي يَدِ مَن كَانَت"(الحراني،١٤٠٤، ص. ٢٣٣)**، فالقرينة لفظية (ترتيب) فهنا قد تقدم التمييز (قدراً) على عامله، وهو أسلوب يرجح شمولية المعنى وتعميمه، وكذلك ما ورد في قوله الشريف(عليه السلام): "**عَجَبْتُ لِمَن يَتَفَكَّرُ فِي مَأكُولِهِ، كَيْفَ لا يَتَفَكَّرُ فِي مَعْقُولِهِ" (الحراني،, ١٤٠٤، ص.٢٣٣)**، فهنا المقابلة اللفظية بين (مأكول) و(معقول) على وزن (مفعول)، وهي قرينة صرفية/دلالية (لفظيّة اشتقاقيّة) تبرز التضاد بين الحس والعقل؛ مما يرجح إعراب (مأكوله) و(معقوله) مجرور بحرف الجر، ومنه قوله (عليه السلام): "**رَأسُ العَقلِ مُعاشَرَةُ النَّاسِ بِالجَمِيلِ" (المجلسي, ١٤٠٣، ج٧٥، ص.١١١)**، فقد اشتمل

هذا القول على القرينة اللفظية، فقد أُضيف المصدر لفاعله (في رأس العقل)؛ إذ أُضيف (رأس) مبتدأ إلى (العقل) مضاف إليه؛ مما يرجح رتبة المبتدأ في الصدارة، ويجعل (المعاشرة) خبراً مقصوداً لذاته، وهو تركيب نحوي يحكم الدلالة بتقديم (رأس العقل) كقيمة معنوية.

نلحظ هنا كيف أنّ الإمام (عليه السلام) لا يستعمل القواعد النحوية كضرورة شكلية، بل كقرائن دلالية تخدم المعنى المقصود، فالقرينة اللفظية هنا هي التي حددت (الفلسفة) التي يريد الإمام إيصالها، أما القرينة السياقيّة فقد وردت في أقوال الإمام الحسن(عليه السلام)، فإن كلماته (عليه السلام) لم تكن مجرد عبارات عابرة، بل كانت نابعة من وعيٍ تام بظروف زمانه ومكانته، ففي كل موقفٍ مرّ به، كان يختار مفرداته بعناية لتناسب الشخص الذي يخاطبه والحدث الذي يعيشه، وهو ما نسميه اليوم بالقرينة المقامية، فالمتأمل في خطبه وأحاديثه يجد أن الإمام(عليه السلام) كان يوظف (الحال) ليجعل كلامه أكثر تأثيراً وإقناعاً؛ فليس الكلام في مقام العتاب كالكلام في مقام النصح، وهو (عليه السلام) كان يتقن هذا التوازن الدقيق، جاعلاً من سياق الموقف مفتاحاً لفهم حقيقة ما أراد إيصاله، ومن ذلك قوله(عليه السلام) في مقام الرد على منتقدي (التواضع) قال (عليه السلام): **"مَنْ عَرَفَ اللهَ أَحَبَّهُ، وَمَنْ عَرَفَ الدُّنْيا زَهَدَ فيها، وَالمؤمنُ لا يَلْهو حتَّى يغفَلَ، فإذا تَفكَّرَ اعْتَبَرَ"** (الطبرسي, ١٤١٣، ج٢، ص. ٢٩١). جاء هذا القول في مقام (التوجيه السلوكي) لأولئك الذين لم يستوعبوا طبيعة زهد الإمام (عليه السلام) وسموّه عن بريق السلطة. جاء النص؛ ليوضح أن الزهد ليس ضعفاً، بل هو نتيجة طبيعية للمعرفة بالله، فكان (المقام) هنا هو مقام بيان (العلل والغايات) للفعل الإنساني، ومنه قوله (عليه السلام) في مقام الحث على التمسك بالأدب في الحوار (أدب اللسان)، قال (عليه السلام): **"ألا إنَّ أبصَرَ الأبصارِ ما نَفَذَ في الخيرِ مَذْهَبُهُ، ألا إنَّ أسمَعَ الأسماعِ ما وَعَى التَّذْكِيرَ وقَبِلَهُ" (الصدوق, ١٤١٧، ص.٢٢٥)**، ورد هذا القول في مقام (المقارنة التعليمية)؛ إذ يوجه الإمام(عليه السلام) الأنظار إلى فضل الحواس حين تُوجه نحو الغايات الروحية، فالسياق المقامِي يقتضي توجيه المخاطب (الذي قد يستعمل سمعه وبصره في اللغو) نحو التغيير الجذري في وظيفة هذه الحواس، ومن ذلك قوله (عليه السلام) في مقام الرد على معاوية (تثبيت المرجعية الشرعية) قال (عليه السلام) في إحدى مراسلاته" **:فقد دعوتنا إلى أن نكون لغيرنا متبوعين، ولأنفسنا تابعين، فو الله لو أراد الله أن نُطاع لأطاعنا، ولو أراد أن نُعصى لعصانا" (ابن أبي الحديد, ١٩٥٩، ج١٦، ص.٤٣)** في هذا النص جاء في مقام (التفاوض السياسي) والمناظرة الفكرية مع معاوية بن أبي سفيان، والمقام هنا يقتضي الحجاج وإثبات الأحقية بالخلافة بعيداً عن الغلبة المادية؛ إذ استعمل الإمام(عليه السلام) منطق القدرة الإلهية لإبطال ادعاءات خصمه، وهذا يعكس ذكاءً في اختيار الألفاظ التي تلجم الطرف الآخر في مقام المواجهة، وكذلك قوله (عليه السلام)**"مَن لَم يَرَ لِنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ إلاَّ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ، فَقَد قَصُرَ عَمَلُهُ، وَدَنَا عَذَابُهُ" (المجلسي, ١٤٠٣، ج٧٥، ص.١٠٥)** القرينة هنا (سياقية) بـ(الحصر) أداة الحصر (إلا) في سياق النفي (لم يرَ)، تُرجح قصر دائرة التفكير المادي على الجانب الحسي (المطعم والمشرب)؛ مما يستوجب مقابلة نحوية ودلالية في جواب الشرط، ومن هذه النماذج يتبيّن لنا كيف أن الإمام الحسن (عليه السلام) وظّف بلاغة (المقام)؛ لتغيير قناعات المتلقي، متجاوزاً الدلالة المعجمية للألفاظ إلى الدلالة التداولية (Pragmatic Meaning) التي تفرضها ظروف الحدث.

استند الإمام الحسن (عليه السلام) في طروحاته على القرائن المعنوية بوصفها مفاتيح لفهم أبعاد خطابه، فلم يكتفِ بتقديم الحكمة كقولٍ مجرد، بل صاغها بأسلوبٍ يربط الدال بمدلوله المعنوي بعمق؛ ففي توجيهه للشورى في قوله(عليه السلام): "**ما تشاور قومٌ إلا هدوا إلى رشدهم**" (الطبرسي, ١٤١٣، ج٣، ص.٢٩٢) لم يكتفِ بتقريرها كفعل، بل جعل (الرشد) نتيجة حتمية لا تتحقق بدونها؛ مما ينفي شرعية الاستبداد بالرأي، وكذلك في قوله (عليه السلام): " **الزهدُ بصيرةٌ، والطمعُ استشعارُ ذلٍّ**" (المجلسي, ١٤٠٣، ج٤٤، ص.١٣٩)، فقد ربط الإمامُ(عليه السلام) بين المعرفة والزهد؛ إذ يرى في الزهد (بصيرة) عقلية لا مجرد ممارسة تقشفية، فالمعرفة بالله هي التي تُنتج المحبة، تماماً كما أن معرفة حقيقة الدنيا هي المولد الطبيعي للزهد، ومنه قوله (عليه السلام): "**أحسنُ الحسنِ الخلقُ الحسنُ"(ابن أبي الحديد, ١٩٥٩، ج١٨، ص. ١٩٣)** اشتغال الإمام(عليه السلام) بلفظ (الحسن)

مرتين مع اختلاف الرتبة المعنوية (المرتبة الأولى كاسم تفضيل مطلق، والثانية كصفة مقيدة)، يهدف إلى حصر جميع أنواع الجمال في الجمال الأخلاقي، وهي قرينة تدل على تفضيل الجوهر على المظهر، ولا يتوقف التحليل عند الفعل الخارجي كم في قوله(عليه السلام): " **كفى بلسانك ترجمانًا عن عقلك، وشاهدًا عن فضلك**" (الصدوق, ١٤١٧، ص.٢٢٥)، بل يمتد ليشمل (اللسان) بوصفه كترجمانٍ للعقل؛ إذ يُعَد اللسان في نظره قرينةً معنويةً لا تكشف عن فصاحة المرء فحسب، بل هي شاهدٌ عيان على رجاحة عقله وعمق فكره، فالقرينة المعنوية تقتضي أنّ العقل هو الأصل واللسان هو المظهر، ومن ثمَّ فإنَّ رداءة اللسان تنعكس مباشرةً على تقدير العقل، وبهذا نرى أن أقوال الإمام(عليه السلام) تتحول من مجرد حكمٍ أخلاقية إلى منظومة فكرية مترابطة تستند إلى قرائن عقلية ومعنوية تُؤسس لوعيٍ سلوكي متكامل.

الخاتمة:

أهم النتائج التي توصلت إليها:

١-كشف التحليل أن استراتيجيات العدول التركيبي (كتقديم المفعول به، والتقديم والتأخير، والحذف) لم تكن ترفاً أسلوبياً، بل كانت ضرورةً إقناعيةً لتعميق الدلالة وتثبيت المعاني في ذهن المتلقي؛ مما يربط الخطاب الحسنيّ بمرتكزات المنهج الوظيفي الحديث الذي يعنى بتأدية البنية لوظيفتها في سياق التواصل.

٢-أظهر البحث أن القرائن (اللفظية، والسياقية، والمعنوية) كانت هي المرتكز الأساس لتوجيه البنية النحوية؛ إذ استعملت لترجيح أوجهٍ تركيبيةٍ معينة، ورفع اللبس، وضمان دقة وصول مراد المتكلم؛ مما يؤكد أن بناء القاعدة النحوية في هذا الخطاب استند إلى المعنى بوصفه مرشداً أول لضبط التراكيب.

٣-أثبتت الدراسة أن ظاهرة (التضمين) في الأفعال الحسنيّة لعبت دوراً جوهرياً في توسيع الأفق الدلالي للأفعال الأصلية، ناقلةً إياها من دلالاتها المعجمية إلى دلالاتٍ أرحب تفرضها سياقات الخطاب ومقاماته؛ مما جعل القاعدة النحوية أداةً فاعلةً لتأسيس منظومة فكرية مترابطة تتجاوز الوصف الشكلي للغة.

٤-اتضح أن ثنائية (اللفظ والمعنى) في المدونات الحسنيّة تشكل بنية متلاحمة؛ إذ أصبحت القواعد النحوية بمثابة (الحارس) الذي يضبط تماسك النص، بينما تولت الدلالة (المقامية والمعنوية) دور (الموجّه) الذي يمنح هذه القواعد قيمتها البلاغية والتربوية، وهو ما يجسد التكامل بين "نظرية العامل "عند القدامى والتحليل الوظيفي للغة.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

الكتب المطبوعة:

- أبو الفرج الأصفهاني .د.ت .*مقاتل الطالبيين* (تحقيق: أحمد صقر .,دار المعرفة.
- أبو بكر الخطيب البغدادي. (٢٠٠١). *تاريخ بغداد (مدينة السلام)* (تحقيق: بشار عواد معروف .,دار الغرب الإسلامي.
- أبو عبد الله الحاكم النيسابوري. (١٩٩٠). *المستدرك على الصحيحين* (تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا .دار الكتب العلمية.
- إبراهيم بن محمد جمعة. (٢٠٠٤). *توجيه القراءات القرآنية في كتاب إعراب القراءات السبع وعللها لأبي عبدالله الحسين بن خالويه* ،دار الكتب العلمية.
- ابن أبي الحديد. (١٩٥٩). *شرح نهج البلاغة* (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ,) .دار إحياء الكتب العربية.
- ابن الأثير .د.ت .*المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر* (تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ,، المكتبة العصرية.
- ابن جني. (١٩٥٢). *الخصائص* ، دار الكتب المصرية، ;تحقيق: محمد علي النجار
- ابن هشام. (١٩٦٦). *مغني اللبيب عن كتب الأعاريب* (تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ,دار الفكر.
- الآمدي، د.ت، .*الإحكام في أصول الأحكام*. دار الكتاب العربي.
- الأخفش الأوسط. (١٩٨٥). *معاني القرآن* (عالم الكتب ,، ;.تحقيق: عبد الأمير محمّد أمين الورد
- الأصفهاني، الراغب.د.ت .*المفردات في غريب القرآن* (تحقيق: صفوان عدنان داوودي .دار العلم الدار الشامية.
- الجرجانيّ، عبد القاهر. (١٩٩٢). *دلائل الإعجاز* (تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني.
- الجوهريّ، إسماعيل بن حماد. (١٩٩٠). *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية*، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار .دار العلم للملايين.
- الحراني، ١٤٠٤. .*تحف العقول عن آل الرسول* (تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي.
- الحربي، عبد العزيز. (١٤١٧). *توجيه مشكل القراءات العشرية الفرشية لغة وتفسيرا*. جامعة أم القرى.
- الزامليّ، ولبابيديّ. (٢٠٢٤). الفعل هَوِي بين التعدّي واللّزوم. مجلد (٤٥)، العدد(١) *مجلة كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة واسط*https://doi.org/https://doi.org/10.31185/eduj.Vol54.Iss1.3805 .
- الزركشي، بدر الدين. (١٩٨٤). *البرهان في علوم القرآن* (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم .دار التراث.
- الزركشي. (١٤٢١). *البحر المحيط في أصول الفقه*. دار الكتب العلمية.
- السكاكي. (١٩٨٧). *مفتاح العلوم* (تحقيق: نعيم زرزور ,، .دار الكتب العلمية.
- السيوطي. (١٩٧٦). *الاقتراح في علوم أصول النحو* (تحقيق: أحمد محمّد قاسم .,دار النهضة العربيّة.
- الشاطبي. (١٤١٧). *الموافقات* (تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان .,دار ابن عفان.
- الشوكاني. (١٩٩٩). *إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول* (تحقيق: أحمد عزو عناية .,دار الكتب العلمية.
- الصدوق. (١٣٦١). *معاني الأخبار* (تحقيق: علي أكبر الغفاري .,مؤسسة النشر الإسلامي.
- الصدوق. (١٤١٧). *الأمالي*. مؤسسة البعثة.
- الطبراني. (١٤٠٤). *المعجم الكبير* (تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي .,مكتبة ابن تيمية.
- الطبرسي. (١٤١٣). *تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)*. دار التراث.
- الطبري) .١٣٨٧ .(*تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)*. دار التراث.
- العلاق، صادق .د.ت .*أثر المعنى في بناء القاعدة النحوية*. دار الفكر.
- الغزالي. (١٩٩٧). *المستصفى من علم الأصول* (تحقيق: محمد سليم عفانة .,دار ابن الجوزي.
- الفراء. (١٩٨٠). *معاني القرآن* (الهيئة المصرية العامة للكتاب ;.,تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمّد علي النجار
- الفيروزآبادي د.ت .*القاموس المحيط*. مؤسسة الرسالة.

- القزويني. (١٩٨٥). *الإيضاح في علوم البلاغة* (تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي,، دار الجيل.
- القيس، عدنان .د.ت، .*في النحو العربي: دراسة في ضوء علم اللغة الحديث*. دار الفكر.
- المازندراني .١٣٨٨ .*شرح أصول الكافي*. دار الكتب الإسلامية.
- المجلسي. (١٤٠٣). *بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار*. دار إحياء التراث العربي.
- حسان، تمام.د.ت .*اللغة العربية: معناها وبناها* (عمّان). دار الثقافة.
- حسان، تمام. (٢٠٠٠). *الأصول دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغويّ عند العرب النحو، فقه اللغة، البلاغة*. عالم الكتب.
- خلاف، عبد الوهاب.١٤١٦ .*علم أصول الفقه*. دار القلم.
- سيبويه. (١٩٨٨). *الكتاب* (تحقيق: عبدالسلام هارون .,مكتبة الخانجي.
- طاووس الحلي. (٢٠٠٢). *مهج الدعوات ومنهج العبادات* (تحقيق: كرمان رزق .,دار الأعلمي للمطبوعات.
- عمر، أحمد مختار .د.ت .*علم الدلالة*. عالم الكتب.
- غالب، مصطفى .د.ت .*دراسات في فقه اللغة العربية* (دار الأندلس.
- مجموعة مؤلفين .د.ت .*المعجم الوسيط* (تحقيق: مجمع اللغة العربية .,دار الدعوة.
- مجموعة من الباحثين،د.ت، *موسوعة كلمات الإمام الحسن (عليه السلام)*. دار المعارف.
- ابن منظور, .د.ت، *لسان العرب*. دار صادر.
- يونس علي، .د.ت، .*البنيوية والنحو العربي* (دار الوفاء.